19 أزمة علم النفس المعاصر

نزار العاني

مدير مركز القياس والتقويم والتطوير الأكاديمي - جامعة البحرين

- مجلة إسلامية المعرفة، السنة السادسة، العدد 22، خريف 2000، ص 35-61 [27 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- مجال البحث (الكتاب): أسلمة علم النفس (عبر تشخيص أزمة علم النفس المعاصر).

❑ ❑ ❑

يستهل الباحث ورقته بأنه ليس علم النفس لوحده في أزمة، فالعلمانية عموماً، والطريقة العلمية التي تقوم عليها خاصة، في أزمة نقد ذاتي وخارجي وواقعي معاً. ولأن علم النفس قائم على العلمانية والطريقة العلمية ويستند عليها في كل نظرياته وفرضياته وطروحاته ومسلماته ومعاييره، فإن أزمة الأصل لابد أن تنعكس في الفرع أو التابع.

ويحدد الباحث أنه سيركز على أربعة أساسات يعتبرها حجز الزاوية في هذه الأزمة وهي:

النظرية، مصادر المعرفة، المنهجية، والمعايير والمحكات

ثم يدخل الباحث بعرض القضايا المطروحة على المنظورات النفسية المختلفة وكيف تتعارض - أو تتناقض أحياناً - هذه المدارس مع بعضها بشأن هذه القضايا مثل: قضايا البيئة مقابل الوراثة، والشعور مقابل اللاشعور، والسلوك الملاحظ مقابل العمليات العقلية الداخلية، والحتمية مقابل حرية الإختيار، والفروق الفردية مقابل الخصائص المشتركة، . . . حتى ليظن قارئ كتب علم النفس أن هناك علمين مستقلين لعلم النفس أو أكثر لا علاقة لبعضها بالآخر.

وبعد أن يجدول الباحث رأي المنظورات النفسية في كل هذه القضايا المطروحة منظوراً منظوراً وأزمة أزمة، يدخل الباحث في تفصيل الأزمات الأربع التي حددها في بداية ورقته.

* فمن حيث أزمة النظرية يرى الباحث أن أشد أزمة يعيشها علم النفس المعاصر هي غياب الإطار النظري العام الموحد عن الرؤية النفسية، ولأن علم النفس التزم من يوم مولده بالفلسفة العلمانية التي يغّيب أساسها (صمتاً أو هروباً) ويظهر تطبيقها (إعلاناً وإشهاراً) فإن أطاره النظري بقي يتأرجح ما بين الفلسفات المتباينة ووجهات النظر المختلفة. وبالتأكيد فإن وجهات النظر والخبرات الشخصية لا يمكن أن تبني علماً تجريبياً أو تطبيقياً. والذي ينظر في تاريخ ومنظورات علم النفس يمكنه أن يلاحظ ببساطة أن الأشخاص هم الذين كونوا النظريات ثم تتلمذ على أيديهم مجموعة من الناس ساروا على نهجهم، ومنهم من خرج على أستاذه وتفكيره ومنظوره بسبب امتلاكه وجهة نظر أخرى (ويضرب الباحث أمثلة كثيرة مفصّلة وأسماء كبيرة في تاريخ علم النفس المعاصر لمثل هذا الخروج والاختلاف).

ومن هنا يرى الباحث أن علم النفس بحاجة ماسة لأن تكون له منطلقاته الفلسفية الواضحة، وإطاره النظري المشترك، ومحددات منهجية عامة لترسم المرجع الذي يمكن أن تشتق منه المسلمات والافتراضات وتختبر في ضوئه الفرضيات وتستند إليه التفسيرات.

ويستدرك الباحث بأنه إذا حددت الطريقة العلمية أو التجريبية أساساً لتكوين المنظور (كما هو شائع في كتب علم النفس) فإن أكثر النظريات النفسية (أولها مدرسة التحليل النفسي وآخرها الإنسانية) لم تخضع لهذا المعيار، بل ولا يمكن في إطار توجهها أن تخضع له (يناقش الباحث سبب عدم خضوعها لهذا المعيار).

ثم يخلص في هذه الأزمة إلى أن النظرية في علم النفس المعاصر تنطلق عادة من وجهة نظر صاحبها أولاً، وخبراته الشخصية ثانياً، والتأثيرات البيئية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي يعيشها ثالثاً، ومن التراكم المعرفي لعلم النفس رابعاً. وكل هذه القواعد الأربع تزيد في الاختلاف وتدعو إلى التباين والتناقض لتشكل أزمة كبيرة لهذا العلم.

* أما الأزمة الثانية لعلم النفس المعاصر كما يحددها الباحث فهي أزمة

مصادر المعرفة التي يحددها علم النفس المعاصر بخمسة مصادر:

الإحساس أو الشعور العام، الركون إلى السلطة (أو الإختصاص)، السببية (العقلانية)، الملاحظة غير المنظمة، والطريقة العلمية.

ثم يفصَّل الباحث كل مصدر من هذه المصادر من خلال تعريف مرجعيات علم النفس لها (ويدلّل على أزمة كل مصدر منها من خلال رأي علماء النفس الغربيين فقط وفي أمهات كتبهم وأحدثها).

- فمن حيث الشعور العام فإنه لا يصل إلى الفرد بوصفه شعوراً عاماً فعلاً حيث لا يمكن ذلك عملياً ولا واقعياً. إضافة إلى أن هذا الإحساس أو الشعور غالباً ما يكون قناعة شخصية يحاول الفرد أن يجد لها المبرر الخارجي.
- ومن حيث الركون إلى السلطة أو الإختصاص فإنهم لا يمكن أن يصلوا إلى المعرفة (وهي موحدة) بسبب الاختلاف البيّن في وجهات نظرهم وقناعاتهم (يضرب الباحث مثالين في مسألة الموهوبين والمتخلفين عقلياً).
- أما السببية (وهو مصدر نقيض في الحقيقة لكل من الشعور العام والركون إلى السلطة) لا يمكن أن يعوَّل عليها كمصدر للتنبؤ المستقبلي أو المعرفي (يستشهد الباحث بـ Vrooman وBandura والفلسفة الشكية وديكارت وقصته مع صوت الرعد والإنهيار الثلجي). حيث يرى علم النفس المعاصر أن السببية طريقة غير معصومة ولا يعتمد عليها كمصدر من مصادر المعرفة إلا إذا دعّمت بالبحث العلمي(أي بالطريقة التجريبية).
- والمصدر الرابع هو الملاحظة غير المنظمة التي يراجعها ابتداءً من (جون لوك). ثم يشير الباحث إلى (Sdorow/ 1995) الذي يعتبر هذا النوع من الملاحظة، وبسبب اعتمادها على ملاحظات انتقائية ومصادفية وعلى يد أشخاص معينين، مصدراً غير صادق أو دقيق للمعرفة في الغالب.
- ولعجز هذه المصادر الأربعة تبنّى علم النفس المعاصر الطريقة العلمية

التي تقترض أن المعرفة وليدة الموضوعية. وتتحدد خطواتها (كما يعرضها Feldman/ 1996) بالآتي: تحديد أسئلة مرغوبة، تطوير فرضيات، واختبار تلك الفرضيات إجرائياً. والطريقة العلمية تستوعب كل أهداف البحث العلمي وهي: الوصف، التنبؤ، السيطرة، أو الشرح والتوضيح. وبعدها يدخل الباحث بتفصيل وعرض طويل لطرق البحث: البحث الوصفي، الدراسات الإرتباطية، البحوث التجريبية وشروطها من تكافؤ للمجموعات وسيطرة تجريبية.

[يفصل الباحث طويلا في كل منها ويدلل بعجزها أو أزمتها على لسان علمائها ومستخدميها].

* الأزمة الرابعة التي تناولتها الورقة هي أزمة المعايير والمحكات، ويمثَّل لها بمسألة التمييز بين (الطبيعي) و(غير الطبيعي) سواءً أكان هذا التمييز في السلوك أم الخصائص أم الأفراد أنفسهم. ثم يعرج الباحث بعدها إلى الخلافات الكثيرة والحادة بين علماء النفس المحدثين بمثل هذا التصنيف أو التمييز، ويرجع ذلك إلى غياب (المعيارية) أو (المحكات) التي يتم التمييز في ضوئها. ويستدل الباحث بـ (Atkinson/ 1996) وآخرون بقولهم «أنه لا يوجد في علم النفس كتاب يتوافق تماماً في تصنيفه للفئات أو السلوك غير الطبيعي مع كتاب آخر».

ثم يدخل الباحث في تصنيف (DSM-4) لمنظمة الصحة العالمية (WHO) الذي لا يظهر فيه أي تصنيف من التصنيفات العصابية أو الذهنية التي كانت في التصنيفات السابقة.

وبعد تفصيل ذلك يدخل الباحث في عرض المعايير المعتمدة في مدارس علم النفس لتمييز السواء عن غير السواء (يستعرضها كلها رغم أنها ليست محل اتفاق أو إجماع إلا على بعضها):

- يبدأ بمعيار الإنحراف أو غير المألوف، أي الإنحراف عن السلوك المثالي (النموذج) الذي يشتق من المعايير الكمية(Standards) المقبولة ثقافياً، وماهية نوع وكم الشاذ عنها (يدخل الباحث في السلوك اليومي،

نسب الذكاء، القيم، القلق، الكآبة... إلخ) والتي لا يمكن الركون إليها كمعيار عام صادق لمثل هذا التمييز.

- المعيار الآخر هو (سوء التكيف) وهو علامة من علامات المرض النفسي لأنه يفسد على الشخص حياته الاجتماعية أو الأكاديمية أو المهنية. ثم يدلّل الباحث على فشل هذا المعيار مرة بأمثلة من الواقع ومرة بالاستشهاد بما يقوله علماء النفس المحدثون الغربيون (لم يستشهد الباحث في كل ورقته بأي مصدر عربي أو إسلامي أو عربي قديم رغم كثرة عدد مصادره التي أقتبس منها 50 مصدراً).
- ثم (البؤس الشخصي)، ويضرب مثلاً بالشذوذ الجنسي الذي حدد ضمن تصنيف اللاسواء حتى عام 1973م (بمعيارين: غير الطبيعي، وسوء التكيف). ثم نتيجة للمظاهرات والتجمعات وحقوق الإنسان تراجع علماء النفس والجمعية النفسية الأميركية (APA) عن تصنيفها لتجعل من يشعر منهم بالبؤس الشخصي فقط شاذاً دون غيرهم من الشاذين جنسياً.
- وحتى مصطلح المعيار الشخصي اختلف فيه علماء النفس المحدثون وأعطى كل واحد منهم مفهوماً مغايراً عن غيره (يضرب الباحث أمثلة على ذلك).

* ثم ينتقد الباحث بعد ذلك المحكات أو المعايير الخمسة واحداً واحداً بتفصيل وأمثلة واستشهادات علمية وأكاديمية. ويعدد النماذج المتباينة للسواء وغير السواء: النموذج الطبي، نموذج التحليل النفسي، النموذج السلوكي، النموذج المعرفي، النموذج الإنساني، النموذج الاجتماعي - الثقافي ..... إلخ.

ثم يعطي المحكات المتباينة بين كل من (Weiten، 1995)، (Kass, et.al، 1989) (Kirk and Kutchins، 1992)، (Wakefield، 1992).

* بعد ذلك يختتم الباحث ورقته بقصة لطيفة عن البحث الذي أجراه (Rosenhan/ 1973) باستخدام طلبته بالدراسات العليا للتظاهر بمرض نفسي (وهم أصحاء نفسياً تماماً بعدد ثمانية أشخاص ولعرض 12 حالة مرضية، إذ كرر 4

منهم التظاهر بالمرض لمرتين) وهو: سماع أصوات غير محدودة. وكيف أرسلهم الباحث إلى مستشفيات ومصحات نفسية وعقلية مختلفة في ولايات أميركية مختلفة ليظهر تشخيصهم على الشكل الآتي:

- 11 حالة شخصت على أنها مرض (فصام - شيزوفرينيا)
- حالة واحدة شخّصت على أنها إضطراب نفسي شديد

وعولجوا جمعياً (ما بين 7 أيام إلى 25 يوماً لكل حالة)، وكان متوسط مكوثهم في المستشفى أو المصح (19) يوماً للحالة الواحدة.

ويذكر Rosenhan أن الغريب في الأمر أن بعض المرضى النفسيين الآخرين من نزلاء هذه المستشفيات اكتشفوا طبيعة هؤلاء المرضى المزيفين في حين لم يكتشف أي طبيب أو ممرضة (من المعالجين) زيف مرضاهم.

* ثم يخرج الباحث من كل هذا العرض بأن أساس أزمة علم النفس المعاصر تكمن في إطاره العلماني المادي الذي أسقط عنه الجانب الروحي أو الإيماني الغيبي، والذي يشكل الجزء الحتمي المتمم الآخر من دوافع الإنسان وسلوكه ومعتقداته ونظرته للحياة من ناحية، ولنفسه من ناحية ثانية، ولعلاقاته مع الآخرين من ناحية ثالثة. ويسمى الباحث هذا الجانب بـ «البعد المغيَّب» عن الإطار النظري والمنهجي في علم النفس المعاصر ليشير إلى تفصيله في ورقة أخرى له.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

أزمة علم النفس المعاصر، أزمة المنظورات النفسية المعاصرة، أزمة مصادر المعرفة في علم النفس، أزمة المنهجية في علم النفس، أزمة المعايير والمحكات في علم النفس، البعد الغائب أو المغيّب في علم النفس المعاصر.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

الباحث هو نفسه الذي يعد هذا المَسَرد (البيبلوغرافيا) ويرجو من الآخرين تقديم الملاحظات عن ورقته.

❑ ❑ ❑